.

الحلقة (٩)

كنت في نهاية الحلقة الماضية بدأت الحديث عن **مكانة الأخلاق في الإسلام**، وقد ذكرت بعض النقاط:

١-إن أهم ما يبين قيمة الأخلاق ومنزلتها **ما وصف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال عنه** {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: " كان خلقه القرآن" ولا شك أن الأخلاق السامية الرفيعة هي للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أراد التأسي به في ذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى الأخلاق الجامعة أو الخصال الجامعة لهذا التأسي أو هذا الخلق العظيم، وقال سبحانه وتعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }

فهذه الآية جمعت خصال الخير:

الأولى الإخلاص لله عز وجل وحده دون سواه .

والثاني إرادة الدار الآخرة وتقديمها على الدنيا فمن أحب لقاء الله أحب الله لقائه .

الثالث الإكثار من ذكر الله ولا شك أن من أحب شيئا أكثر من ذكره فمن أحب الله كان كثير الذكر له، ومن كان كثير الذكر لله سبحانه وتعالى كان حريا أن يحبه الله تعالى.

تذكروا فعل ذلك الصحابي الذي ندبه الرسول صلى الله عليه وسلم مع مجموعة من الصحابة فكان يصلي بهم، وكان يختم صلاته دائما بسورة الإخلاص { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } فلما رجعوا قالوا في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سلوه لم يفعل ذلك؟ فسألوه فقال: (**إنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أذكرها**) فبين لهم الرسول صلى الله عليه و سلم أن الله يحبه.

إذن فمن أكثر من ذكر الله تعالى ومن أحبه وأحب أسماءه وصفاته، كان حريا أن يحبه الله عز وجل، فتلك هي خلاصة الأخلاق و زبدتها وأساسها الذي يحصل به الإنسان على خيري الدنيا والآخرة، فيكون محبوبا عند الله عز وجل، ومقبولا عند الخلق، عادلا طيبا طاهرا بإذن الله.

٢- الأمر الآخر الذي يتجلى منه قيمة هذه الأخلاق **أنها جاءت كأنها تعليل لمجيء الرسالة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** وذلك بأن **الأخلاق:**

تخلّق مع الله عزوجل وتخلّق مع الخلق، أو معاملة مع الله سبحانه وتعالى ومعاملة مع الخلق، فالدين كله لبيان هذه المعاملة فيما يتعلق بتعامل العبد مع ربه وتعامله مع مخلوقات الله عز وجل الأخرى،

سواء منها الإنسان من بني جنسه أو المخلوقات الحية وغير الحية.

٣- ومما يدل على مكانة الأخلاق **أن الدين عُرِّف بها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (** **الدين حسن الخلق)** ذلك أن الإحسان هو قمة الدين وأعلى مراتبه، فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وحينما تكون عابدا لله عز وجل كأنك تراه، فإنك تكون محسنا غاية الإحسان، لأن من وصل إلى هذه الحالة كان حريا بأن لا يقع منه بإذن الله تعالى ما يسخط الله عليه، وإنما تكون كل أفعاله بإذن الله رضاً وتكون محبوبة من الله تعالى، بل تكون توفيقا من الله تعالى، لا يعمل عملا إلا كان فيه موفقا .

كما ورد في الحديث الشريف: (**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**) يجد كل عمل وكل حركة وكل سكون بتوفيق وبنور من الله سبحانه وتعالى، لا يقع بإذن الله تعالى في الخطأ بتوفيق الله وتسديده و حفظه ورحمته، وإلا فلا معصوم إلا من عصمه الله عز وجل.

٤- ومما يدل على مكانتها **أنها أساس في التفاضل، عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم "أي المؤمنين أفضل؟ قال: (أحسنهم أخلاقا)** وكما قلت وأشرت أن الخلق هنا يؤخذ بالمفهوم الواسع الذي يشمل العلاقة مع الله سبحانه وتعالى ومع سائر الخلق، وكلما كان الإنسان متسما بالإحسان في تصرفه وفعله وقوله كان أحسن خلقا، وهذا شأن المصطفى صلى الله عليه وسلم في كل ما يأتي ويذر، ومن ذلك أيضا القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون**).

٥- ومما يدل على مكانتها السامية **أن إحدى مهمات النبي عليه الصلاة والسلام هي التزكية، وذلك لأن تزكية النفوس أساس عظيم لصلاح الفرد والمجتمع بل لصلاح الكون،** لأن الصالح لا يأتِ منه إلا الصلاح والخير، والطالح يؤثر بفساده في كل ما حوله، قال تعالى: { **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** } وبين أثر الفاسدين وكيف يحدث من الخراب في العمران والأنفس والكون، الله عز وجل قال عن نبيه الكريم، { **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** }، فلم تكن مهمته عليه الصلاة والسلام مقتصرة على التلقين ولا على التعليم ولا على مجرد البيان، وإنما كانت تزكية وتربية للأنفس، تصقلها بذكر الله وبطاعته وعبادته والسير على منهاجه ووفق ما يحبه الله ويرضاه، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يأخذ المسلمين بهذه التربية وينتشلهم انتشالا، سواء بالتوجيهات العامة أو بالتوجيه

الفردي أو بالتدريب على الخير (صلوا كما رأيتموني أصلي)، (خذوا عني مناسككم)، (ارجع فصل فإنك لم تصلِ)، (ويل للأعقاب من النار)، وهكذا وإلى آخره، فإذن كان عليه الصلاة والسلام يربيهم بكل شيء في الحادثة يربيهم وفي القصة يربيهم ويضرب لهم الأمثال، ويأخذ بأيديهم إذن في كل شيء، فحين يقع الخطأ يباشر بالتوجيه حتى لا يترسخ الخطأ: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وحينما تكلموا في القدر وتناقشوا فيه خرج وكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان، ونهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وبين أنه مما أهلك الأمم من قبلهم.

إذن كانت توجيهاته عليه الصلاة و السلام تأخذ بأيديهم وترقيهم على مستوى القول والفعل، على مستوى العلاقة الاجتماعية، على مستوى العلاقة الإنسانية، وهذا دليل على عظم مكانة التزكية الأخلاقية والتربية وتطهير النفوس، ومساحته من الدين هذه المساحة الكبيرة، بل الأساس الذي تقوم عليه الأمور الأخرى، فلو تعلم الإنسان الكتاب ولم تتزكى به نفسه ولم تترشح وتتطهر به نفسه، فلا قيمة لذلك الكتاب أو لذلك التعليم سيظل ذلك شيئا محفوظا في رأسه، وكأنما يكون شيئا محفوظا في جهاز أو كتاب لا يعدو أن يكون شيئا يستقبل أو يبث أو نحو ذلك، لكن حينما تتحول هذه المعلومة إلى سلوك وعمل وخلق وإيمان وإلى بر وإحسان، هنا يكون التأثير.

فإذن { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } ليس فقط لمجرد التلاوة وإنما لكي تؤثر في صقل القلوب وتحريكها نحو علام الغيوب.

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تكامل هذه الوظائف الثلاث: التلاوة و التزكية وتعليم الكتاب والحكمة، فتثقيف وتزكية وتعليم عناصر ثلاثة عناصر متكاملة تصنع الخلق الرفيع، وهكذا كان الجيل الذي تربى على يد رسول الله لم يكن بهذا الشكل إلا لما خضع له من تربية أخلاقية عظيمة، ومن سهر متواصل على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

هذه بعض الأدلة، وما يبين ويكشف مكانة الأخلاق في الإسلام، ولست هنا بصدد حصر كل ما جاء من الآيات والأحاديث، فذلك أمر يطول، ولكن حسبنا هذه الإشارات التي أبانت عن مكانة الأخلاق في الإسلام، وأنها جوهرية فيه، بل هي شاملة لكل جزئية ولكل عنصر من عناصر الدين، لأن الدين جاء لبناء الفرد وبناء المجتمع وإسعاد الإنسانية كلها، ولا يتم ذلك إلا بإيمان عميق وخلق عظيم أو ممارسة أخلاقية عظيمة، تدفع الفساد وتقلل آثاره، وتأتي بالصلاح وتزيد من ثمراته.

❖ خصائص النظام الخلقي في الإسلام:

الأخلاق في الإسلام ليست أخلاقا نظرية تدرس و يكتفى بدراستها، أو الجدل حولها فلسفيا، وإنما هي أخلاق كما اتضح تعمل في كل لحظة من اللحظات، تعمل في الأنفس مطهرة لها ومزكية ورافعة لها في كل لحظة من اللحظات، بناء على انبثاقها من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وإرادة وجهه عز وجل،

وتوسلا إلى ذلك بذكره سبحانه وتعالى، سواء كان ذلك بالذكر القولي أو بالذكر العملي، سواء كان بالشعائر المحددة أو بالتصرفات الممدوحة، كل ذلك هو في حقيقته وجوهره ممارسة أخلاقية تنعكس على روح المؤمن بالطهارة والنماء، وتنعكس على حياته بالخير والفلاح والصلاح .

➔ فمن خصائص هذا النظام:

- **الخصيصة الأولى: التعميم والتفصيل..**

بمعنى أنه جاء بتوجيهات عامة تشمل الأخلاق كلها، وتسري فيها كلها، وجاء بتوجيهات مفصلة للعديد من الأخلاقيات، سواء كانت أخلاقيات فردية أو أخلاقيات ذات صلة بالعلاقات الاجتماعية، أو صلة بالإنسانية كلها، بهذا الشكل جاءت التوجيهات الأخلاقية وجاء توضيح الأخلاق في الإسلام، فمن ذلك مثلاً قول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } فهنا فيها أخلاق جامعة عامة إذا عملها الإنسان جمعت له أخلاقا كثيرة، { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } **والعدل** يسري في الحياة كلها أول مجال من مجالاته هو النفس، العدل **مع الله سبحانه وتعالى بأن لا تشرك به شيئا** لذلك ورد { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } الشرك بالله الظلم الأكبر، لأن من فعل ذلك فقد جار في علاقته مع الله سبحانه وتعالى، فحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، فإذا وقع العبد في الشرك وقع في أشد أنواع الظلم، لأنه أساء إلى من أحسن إليه وأوجده من عدم، وأمده وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، فأساء الأدب هنا، وقدم ما حقه التأخير، وأخر ما حقه التقديم، فأساء في هذا الأمر وخالف الحكمة في وضع الشيء في غير موضعه، إن الله يأمر بالعدل فالعدل إذاً فالنفس.

والعدل في الممارسة سواء في بيعه وشرائه أو تصرفاته مع الناس في أخذه وعطائه في توجيهه وقوله لا يجاوز الأصل أن الإنسان لا يجاوز الحد في كل ما يأتي ويذر، سواء مع الله عز وجل أو مع الناس أو مع عالم الغيب أو مع عالم الشهادة، سواء مع نبات أو مع حيوان أو جماد، فلا يجور على الأشياء التي وضعها الله لنفع العباد.

فمثلاً: قوله صلى الله عليه وسلم (لا يسرف أحدكم ولو كان على نهر جار) فالإسراف هنا جور، مضاد للعدل، كمن يسرف فيما حبى الله به عباده من النعم، كما نرى حال الحضارة المعاصرة التي تنطلق مع إرادة الربح، غير مبالية بالأرزاق التي ادخرها الله لعباده وللأجيال القادمة، فالله سبحانه وتعالى وضع في الأرض كفايتها، ولكن الإنسان يجور على هذه الكفاية فيستهلك لجيل واحد ما يكفي لأجيال، وهذه هي المأساة التي بدأ الغرب نفسه يشعر بها، وبدأ عقلاؤهم ينادون بضرورة الاهتمام بمستقبلنا المشترك، وبالمحافظة على كوكبنا الأرضي من هذا الظلم الجائر، الذي هو نتيجة المنطق الرأسمالي المريد للربح، المتهافت على الدنيا، الذي لا يشبع، كما قال النبي عليه الصلاة

والسلام (لو أوتي ابن آدم واديان من ذهب لسئل ثالثا ولن يملأ فاه إلا التراب)

فنلاحظ هنا الجَور على المعطيات الكونية التي جعلها الله في الأرض لإسعاد عباده وكفايتهم، هذا جور على الموجودات وعلى المخزون لبني البشر ممن هو حاضر ومن سيأتي، وهنا قد يكون جور في إفساد الأرض، مثل تلوث البيئة وما يحدث نتيجة ذلك، ومثل تخرق طبقة الأوزون وغيرها من الأشياء والتغيرات المناخية المترتبة على إفساد الإنسان وعلى جوره في استثمار الأرض، كذلك مما يتضاد مع العدالة أخذ الإنسان ما ليس له وتعديه على حقه في علاقته مع الناس في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه وإدارته وغير ذلك،

إذن الشاهد من ذلك أن العدل قيمة تسري في كل أفعال الإنسان وتصرفاته، وحين يقول الله سبحانه وتعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ }.

كذلك **الإحسان** يسري في كل شيء كما قال صلى الله عليه وسلم (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) حتى في حال القتل والذبح يجب أن يكون بإحسان لا أن يكون بإساءة.

ولذلك مثلا من مظاهر الإحسان، الإحسان إلى العدو.

فمثلا حينما يؤسر أسرى من العدو عند المسلمين، فالمفترض والواجب عليهم أن يعاملوهم بغاية الإحسان، لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يبروهم ويقدموهم على أنفسهم إيثارا وتأدبا مع الله عز وجل، لأن هذا هو مقتضى منطق الإحسان؛ فالعدل والإحسان قيمتان عامتان تسريان في كل ما يأتيه الإنسان ويذره، وهي في الحقيقة من المشترك الإنساني الذي يعني أن الناس جميعا يحبون العدل والإحسان، ويحبون من يمارسهما، ويبغضون من هو ضد ذلك أو من هو ينحرف عن العدل والإحسان، فمن كان مسيئا وغير عادل يتضايق الإنسان منه، فكانت هاتان الصفتان من أعظم الصفات وأعمها التي تدخل في كل الأفعال ويمارسها المسلم والكافر على حد سواء، حتى الكافر يفعل العدل الاجتماعي، وإن كان العدل النفسي قد عد ظالما من حيث عدم توحيده لله سبحانه وتعالى، وهو مسيء من حيث علاقته بالله التي هي قائمة على الإحسان، وإن كان يمكن أن يظهر عليه الإحسان من ناحية العدل مع الخلائق كلها، سواء كانت مخلوقات حية أو غير الحية، وقد يظهر عليه الإحسان كذلك في رفقه بالبشر أو رفقه بالحيوان أو رفقه بالنبات والبيئة، لذلك لدى الآخرين مظاهر لهذا الإحسان، بل مؤسسات إحسانية، ويبدو عليها قيم جميلة يحبها الله عز وجل ويرضى عنها، والإسلام يقر هذه الأخلاقيات التي قد يمارسها غير المسلمين ، وتظهر على سلوكهم وتصرفاتهم، هذه هي الخصلة الثانية التي هي خصلة عامة وشاملة تسري في كل أفعال الإنسان.